الآداب

المجلد:22، العــدد:01، ديسمبر 2022

ISSN 1111 -4908 EISSN 2588 -2228 الصفحات: 324-343

الأنثى ساردة لذاتها / سيرة "أرق الرّوح" لـ "يمنى العيد" أنموذجا

The female as a self-narrator, the autobiography "Araq Al-Rouh"[The Soul's Insomnia] by "Yumna Al-Eid" as a model

ط.د. لمياء عمروش [1]

[1] مخبر الدّراسات اللّغويّة والأدبيّة، جامعة محمّد الشّريف مساعدية-سوق أهراس- الجزائر،

l.amrouch@univ-soukahras.dz

تاريخ الإرسال: 2022/08/22 **تاريخ القبول:** 2022/11/02 **تاريخ النشر:** 2022/12/15

ملخّص:

يكتب المرء سيرته الذّاتيّة ليحكي فيها تجربة الحياة التّي خاضها، فينقل تفاصيلها ويسرد أحداثها، مستجمعا الأيّام التّي عاش فيها تجارب كثيرة، بحُلوها ومرّها، فيعود المرء إلى ذاته القديمة، ليحاورها ويناجيها، ويُذكّرها بأيّام الصّبا التّي انقضت، فيعيد قراءة ذاته وكتابتها، والتّعرّف عليها واكتشافها من جديد، فيتوسّل بالحقيقة تارة، ويتّكئ على الخيال تارة أخرى، وتُسعفه الذّاكرة مرّة وتخونه مرّات أخرى، لتغيب حقائق فتظلّ طيّ النّسيان ، ولعلّ ما يجعلنا نحن القرّاء نهتّم بسيرة دون أخرى، هو مدى تعلّقنا بصاحبها ومعرفتنا به، ومن أولئك الذّين كتبوا سيرهم فأسرونا معهم لقراءتها، كانت النّاقدة: "يمنى العيد" في سيرتها "أرق الرّوح"، التّي خطّت فيها تجربتها الذّاتيّة كأنثى، وكتبت فيها المكان الذّي تسكنه ويسكنها، ولعلّ السّؤال الذّي ينبغي طرحه في هذا المقام ألا وهو: إلى أيّ مدى استطاعت يمنى العيد أن تكتب ذاتها وهي تُزاوج بين الوقائعي والتخييلي؟ كيف تجلّى الصّوت الأنثوي في الخطاب السّير ذاتي؟

كلمات مفتاحيّة: السّيرة الذّاتيّة؛ الذّاكرة الجماعيّة؛ الكتابة؛ التّجربة؛ المرأة؛ يمنى العيد.

Abstract:

One writes her/his autobiography to share their life experiences. They tell its details and narrate the events they went through collecting the days they had these many experiences, the good and the bad ones. They, then, go back to their first self to converse with and remind her of childhood days. They re-read and rewrite their self. They get to know it and discover it once again. They beg for the truth at times, and lean on imagination at other times. Their memory helps them once and betrays them again, so that facts get absent and remain forgotten. As readers, what may interest us in reading one autobiography and not another is the extent of our attachment to the writer and knowing him/her. One of those autobiographers whom we have affinity for, is Yumna El-Aid in her

المؤلف المراسل: لمياء عمروش.

autobiography "Araq Al-Rouh" [The Soul's Insomnia] in which she describes her journey as a female, and wrote of a place she lives in and which inhabits her. What might be asked in this context is to what extent did Yumna Al-Eid manage to portray her self, combining between the factual and the imaginary? How is female voice manifested in the autobiographical discourse?
Keywords: *autobiography; collective memory; writing; experience; the woman; Yumna Al-Eid.*

مقدمة:

تُعدُّ السّيرة الذّاتية من الأجناس الأدبيّة التّي يستعيد فيها صاحبها حياته الشّخصيّة والوقائع التّي عاشها، فيروي تفاصيلها، ويحكي أيّامها، إذ يعود فيها إلى ماضيه، فيحاوره ويستنطقه، مستعيدا ذكرياته التّي تفصله عنها سنوات طويلة، حيث تتقصّى الذّاكرة ما كان يبدو بعيدا فتعود به إلى اللّحظة الرّاهنة، وتزور الأمكنة التّي درج فيها وترسّخت في مخيّلته ،وارتبطت بأحداث وتعلّقت بأشخاص جمعته بهم صلة وثيقة، فنجدها تعمل جاهدة لتخطّي عقبة النّسيان، حتّى تأتي بما تراه مناسبا، وتقفز على ما لا تراه مهمّا فتتناساه، وقد كانت تجربة "يمنى العيد" من السّير الذّاتيّة النّسائيّة التّي سردت فيها تجربتها في الحياة كأنثى وكلّ ما يتعلّق بها، وحَكت عن علاقتها بالأرض والوطن والجماعة، ومن هنا كان علينا أن نتساءل كيف تجلّت مختلف هذه الخطابات في هذا المنجز السّردي؟ وكيف عبّرت يمنى العيد عن ذاتها؟

1. تأكيد الذّات والبحث عن الهويّة:

تعود "يمنى العيد" في سيرتها إلى أيّام طفولتها وصباها، إلى ذاتها القديمة التّي تُذكّرها بماضيها، ماضٍ عاشت فيه سعادتها وشقاءها، وعانقت فيه طموحاتها وأحلامها، طفولة شابها الصّمت والمشاعر الدّفينة التّي استعادتها من خلال الكتابة، فهي قصّة ترويها على مسامعنا حتّى تُشهدنا على مسيرة حياتها، والتّي كانت قد عاشت فيها صراعا مع ذاتها أوّلا، وصراعا مع غيرها ثانيا، ولعلّ صراعها مع ذاتها كان في البداية بخصوص اسمها الذّي شكّل لها هاجسا، تقول: "أبي...هو الذّي سمّاني "حكمت" وليس أمّي التّي ولدتني. كانت أمّي قد فقدت صبيّا جميلا قبل أن تحمل بي، هو أخي عبد الحليم...فبكته أمّي أكثر من بكاء الثّكالى، ولم يكن مجيئي ليُعوّضها الصّبيّ الذّي فقدت. ولعلّ

أبي الذّي عُرف بعشقه لأمّي شاء أن يُعوّضها بالاسم ما لم يكن تعويضا لها بالمسمّى. فاسم حكمت ملتبس يحمل وهما بالذّكورة. كأنّما حين يُعطى لأنثى يُراد الإيحاء بنديّة لها مع الذّكر. كأنّ حكمت الأنثى يُراد لها، بالاسم، أن توحي، أو توهم، بالذّكر"[1]، ولعلّ الاسم الذّي تحمله لم يكن في بدايته مختارا من قِبل الأمّ التّي أنجبت، بل من قِبل الوالد، الذّي لم يحمل ولم يتألّم، ولم يتكبّد المشقّة ولا المعاناة، هذه السّلطة الذّكوريّة التّي تُكرّس نفسها وصيّة على كلّ شيء، حتّى على تلك الأشياء التّي للنّساء الحقّ فيها، فحياتها بدأت في أوّلها تحت وصاية الأب، هذا الذّي اختار لها اسما ذكوريّا ليستعيض به عن ابنه الذّي مات، فهل اختياره كان تطييبًا لخاطر زوجته، وإخمادِ لوعة في صدرها، أم هو تعويض عن نقص شعر به، والتياعٍ في قلبه لخسرانه ذكرا، فلم يجد سبيلا إلّا لتسميتها كذلك، وكأنّ وجودها أضحى محلّ شكّ وسؤال، فلم يكن قدومها لهذا العالم لتأخذ مكانتها كأنثى، وإنّما جاءت لتعوّض مكان أخيها، وتردم الفجوة التّي تركها، وتسدّ الفراغ الذّي كان من بعده، ليظلّ هذا الاسم هاجسا يُطاردها، ووحشا يتربّص بها، ويوهم كلّ من سمعه أو قرأه مكتوبا ظنّ أنّ صاحبه ذكرا، إذ لم تستسغه ولم تستحسنه، كما شكّل لها عائقا في حياتها، جعلها تعيش صراعا تضطرم ناره داخلها، فالاسم، بالنّسبة إليها، لم يكن مجرّد اسم تحمله وكفى، وإنّما أعطى لوجودها مكانته الخاصّة، فراحت في طفولتها تلوذ بالصّمت وتدفن مشاعرها وتكبتها، إذ تقول: "كنت مربكة بعلاقتي مع ذاتي، لا أذكر أنّي كنت أتكلّم مع من حولي. لا أذكر من سنوات طفولتي سوى الصّمت ومشاعر دفينة، غامضة، وسؤال مكبوت: لماذا لم يُسمّني أهلي بغير هذا الاسم؟ حمّلتُ اسمي مشاعري بعد أن حمّلني دلالاته. ورحت أتمنّى اسما بلا هذه الكاف التي تعلق في حلقي، بلا هذه التاء السّاكنة التّي كانت تبدو لي مثل علامة وقف لجسدي الأنثوي"[2]، ذلك بأنّ للأسماء علاقة وطيدة بمسمّياتها، بل إنّ المسمّى يحمل صفة الاسم الذّي يكون لصيقا به، بل هو هويّة الشّيء وماهيته، فإذا كان ذو دلالة جميلة، تحمل معنى سليما، جعلت صاحبها يبدو كذلك، لكن إذا كان مستهجنا بغيضا سبّبت له عقدة نفسيّة، وصراعا مع ذاته ومع العالم، إذ شكّل لها عبئا ثقيلا كان يُلازمها، وقد كان لصيقا بها، فمن خلاله تطرح إشكاليّة الهويّة، التّي خاضتها من خلال الكتابة، حتّى تكتشف ذاتها ووجودها، حيث ترى أن اسمها كان بمثابة القيد الذي يُقيّد

أنوثتها، فحاولت الفكاك منه، والخلاص من تلك الحواجز التّي تقف أمامها بداية به، إذ تستفتح نصّها قائلة: "من أنا؟ هل أنا حكمت أم أنا يُمنى؟، فـ "حكمت" هو اسم طفولتها، والذّي حملته لفترة من الزّمن، أمّا "يُمنى" هو ذلك الذّي كانت قد اختارته لتوثيق أعمالها النّقديّة، فهو اسم مستعار أصبح أكثر من ذلك فيما بعد، وهو الذّي لازمها طيلة حياتها، بل أصبحت تتفاجأ إذا ما ناداها أحدهم بـ"حكمت"، حيث تسكن داخلها شخصيّتان، "حكمت" الطّفلة، و"يمنى" الصّبيّة، الشّابّة، الأستاذة، المديرة، والنّاقدة، يجمع بينهما صراع داخليّ، تُحاول فيه كلّ شخصيّة الظّهور على حساب الأخرى، فتُواريها لتثبت وجودها، لكن صاحبة "أرق الرّوح"، كانت تُؤثر "يمنى"، وتحاول الهرب مرارا من "حكمت" الطّفلة، التّي تُذكّرها بطفولة هدّها الوجع والألم، وأنهكتها مآسي الحرب، وتعيدها إلى أيّام تُصبح فيها على بكاء الثّكالى، وحالات الاضطراب والفوضى التّي تسود مدينتها، تذكر قائلة: "هربت من حكمت إلى يمنى. تركت مدينتي بحثا عن أفق. أريد أن أتحرّر من ذلك الماضي. الماضي وقد قاربتْ فيه حكمت موتها مرّتين"[3] ، فمن خلال تلك الأحداث التّي ظلّت تلاحقها كتهاويم عالقة بذاكرتها لا يمكن نسيانها مهما حاولت ذلك، كانت شخصيّتها الثّانية تزاحم الأولى، لكنّها لم تتمكّن من ذلك وظلّت تطاردها، وتحضر في أحيان كثيرة مهما حاولت تغييبها ودفنها، ولعلّ من أبرز تجليّات هذا الصّراع، كانت صاحبتنا قد مارست لعبة الضّمائر في العمليّة السّرديّة، تعزف من خلالها على وترين، وتر الـ أنا، ووتر الـ هي، فبِاعتبارها تسرد ماضيها البعيد، تتحدّث عن حكمت، تلك الشّخصيّة الأولى في حياتها، لكنّها مع مرور الزّمن تنصّلت منها، فأصبحت تكتب ذاتها من خلال ضمير المتكلّم الذّي يوحي بالتّطابق بين من يروي الحكاية وبين بطلها، وكأنّ الشّعور الفعلي بهذه الشّخصيّة كان مع "يمنى" وليس مع "حكمت"، وأنّ وجودها الحقيقي وُلد بميلاد هذا الاسم، وبالتّالي فـ "إنّ إشكال الضّمائر في السّيرة الذّاتيّة يعود إلى أنّ المكتوب منها بضمير المتكلّم يوهم بالتّطابق بين الرّاوي والبطل في الصّوت والرّؤية، في حين أنّهما منفصلان. أمّا المكتوب منها بضمير الغائب فلا يوهم بالتّطابق، بل يؤكّد حقيقة الانفصال بين من عاش ومن يكتب قصّة حياته"[4]، إذ تقول: "الوقت صباح، وهي تجلس على درج سطح بيتهم...خلعتْ مريولها الأسود الذّي كانتْ قد ارتدته، وحملتْ شغل الصّوف وراحت تقفز فوق

درجات السّلم الحجري"[5]، فمن خلال ضمير الغائب الذّي تُشير به إلى ذاتها وهي صغيرة لحظة الكتابة، كانت حِكمتْ الطّفلة بالنّسبة لها ترقد في الغياب، وتسكن في اللّاوعي، وأنّها حكاية من الماضي، ليس هناك ما يربطها بالحاضر سوى الكتابة التّي تستعيدها فيها وتُحييها من جديد، فمن خلالها تُعيد اكتشاف ذاتها وتأكيد هويّتها التّي كانت في بدايتها ملتبسة ومضطربة، منشقّة بين وهم الذّكورة وبين جسدها الأنثوي. فكتابة المرء لسيرته الذّاتيّة تكون لحظة تشكّل ذاته ونضج شخصيّته، ورغم كلّ الدّوافع الأخرى التّي تقوده لكتابتها، إلّا أنّ الدّافع الذّي ربّما لا تخلو منه كلّ سيرة هو البحث عن الخلود وفرض وجوده في هذا العالم، وتقدير هذه الذّات، وعليه "فكتابة السّيرة الذّاتيّة من أجل الإحساس بذواتنا واستشعار وجودها، وعندما يعود الشّخص إلى ذاته يُصبح قادرا على كتابة سيرته الذّاتيّة"[6]، فالعودة إلى الذّات والاختلاء بالنّفس تجعل الإنسان أكثر قربا منها ومحاورة لها، ويلمس فيها ما تودّ أن تبوح به وتُفصح عنه إلى العالم.

لقد ظلّت شخصيّة الكاتبة لأولى تلازمها، بل وإنّ في تلك الملازمة تأنيب لها ولومها عن سبب تخلّيها عنها، عن ذلك الاسم الذّي كان له فضل كبير في تكوين شخصيّتها، شقّت به طريقها نحو الإبداع والتّميّز، وهو الذّي فتح لها الباب لتمارس الكتابة بحريّة تامّة، وتحظى بقبول يرافقه الثّناء والإطراء، تقول: "حكمت زمن مضى لكنّها داخل يمنى تطرح اليوم أسئلتها عليها وتوقظ ذاكرتها بزمن لا يغادر الذّاكرة. وربّما هي يمنى تعود من زمن حاضر إلى حكمت لتسلّط أضواءها الكاشفة عليها. أودّ أن أتحرّر من ذاك الصّراع الذّي مازال يُضرم النّار في عالمي...أودّ أن أدخل في التّعدّد، أودّ أن أكون أكثر من أنا"[7]، فهي لا تبرحها، وإنّما هي مستقرّة في ذاكرتها، فظلّت تسائلها وكأنّها تقول لها: لماذا هذا التّخلّي؟ ما سبب رحيلك عنّي، وهروبك منّي؟ ألستُ من قادك نحو ما تتمنّين وإلى حيث تطمحين؟، وبهذا جاءت الكتابة لتروي عطش السّؤال، وتُبرهن عن السّبب الذّي سار بها نحو ذلك، وقد بدا لنا أنّها طلب للصّفح، واعتذار منها عمّا فعلت، وتكفير عن الذّنب الذّي اقترفت، فتعترف بفضلها، وأنّ جزءًا كبيرا من شخصيّة يُمنى هو مرآة انعكست فيها صورة حكمت، ففي آخر السّيرة قالت مودّعة لها: "وداعا حكمت. فأنتَ الذّي وفّر لي فرصة أن أكون كاتبة"، إذ ما زالت تتوهّم بأنّه ذكر وذلك من خلال قولها "أنت الذّي"، وفي ذلك عودة إلى أوّل مقال كانت

قد كتبته وقامت بنشره في مجلّة "الطّريق" المنتمية إلى الحزب الشّيوعي، والذّي قد نال الثّناء والتّقدير، وقد سأل الأديب المصري "ميشال كامل" عن صاحبها متوهّما أنّه ذكر، فقيل له أنّ من كتبته أنثى، ولعلّ ذلك الالتباس كان قد أغاظها، لأنّ المديح والإطراء هو مديح لذكر وليس لأنثى، وكأنّ من يحقّ لهم الكتابة فقط، هم الرّجال لا غير، لكن كان ذلك بالنّسبة لها حافزا لتشقّ طريقها نحو الإبداع، وتتحدّى المنظومة التّي تُكرّس نفسها وصيّة على الإبداع، فربّما لو لم يكن هذا الاسم ما كتبتْ، وما نشرتْ، وما تألّقتْ، وما أخذت طريقها نحو النّجاح، أي لولا حكمت لما كانت يُمنى.

أمّ بالنّسبة لمسألة الهويّة والانتماء، راحت الكاتبة تبحث عن هويّتها من خلال جذورها الأولى، فتتساءل عن الأجيال التّي سبقتها قائلة: هل كان جدّي أحد الصّيداويّين المشتغلين بالموريكس؟ أم هو الجدّ الصّوفي القادم من فاس المغربيّة، حاملا كنوزه معه؟ هل كان أبي هو أحد الأحفاد الذّين اغتنوا من كنزه؟" هي أسئلة كثيرة طرحتها وهي تُحاول من خلالها جاهدة إثبات هويّتها، إذ تقول: "ربّما كان أبي، الشّيخ علي المجذوب الصّبّاغ أحد أحفاد ذلك الجدّ الفاسي الأوّل، ممّن عادوا إلى مزاولة مهنة الصّباغة. ربّما كان الحنين الدّاخلي، والحدس العميق هما اللّذان دفعا أهلي إلى التّمسّك بهذا اللّقب "الصّبّاغ"، إضافة إلى "المجذوب"...ربّما أقول. وأنا أحكي عن زمن اختلط فيه ما رأيت وعشت بما سمعت وقرأت"[8]، فرحلة البحث التّي خاضتها كانت تحمل معها شكوكا كثيرة، وهي غير متأكّدة من ذلك، إذ امتزجت لديها الحقيقة بالخيال، واختلطت الشّائعات والمرويّات بما كان موثّقا، وما كانت قد قرأته في كتب التّاريخ، وعليه سعت إلى طرح جملة من الأسئلة على نفسها، ونفي كلّ الشّكوك التّي تتعلّق بانتمائها حتّى تصل إلى جذورها الأولى، حيث تقُدّم أدّلة كثيرة، لكنّها لم تكن قائمة على التّأكيد في بداية الأمر، لتكتشف أخيرا، أصلها العربي الذّي يوحي بالعراقة والأصالة، والانتماء الموغل في العروبة، إذ تذكر أنّها من لبنان، من الشّرق، من شبه الجزيرة العربيّة، من "جدّ عربيّ لا تعترف كتب التّاريخ...بأيّ جذر آخر له. خاصّة الفينيقي"[9]، وهو انتماء ممتدّ في أزمنة بعيدة وغابرة، توحي بكلّ ما هو عربيّ أصيل يميّزها عن غيرها، فهي لا تعترف بالفوارق الطّائفيّة التّي تشتّت البلد، بل تُؤكّد على ما يجمع شمل أهله، وعليه، فإنّ تلك الأسئلة التّي طرحتها الكاتبة كانت من أجل الوصول إلى ما بدا في بدايته مثار تساؤل مربك، وعليه فسؤال المرء المتمثّل في "من

أنا" أو "من أكون"، لا يعني أنّه لا يعلم ذاته، وإنّما هو على معرفة تامّة بها، ولكنّه يفعل ذلك حتّى يعيد اكتشافها من جديد ، ويعرف المكان الذّي يحتلّه من العالم، فيُعيد كتابة هويّته وانتمائه.

كذلك من الأشياء التّي عزّزت بها انتماءها العربي في سيرتها الذّاتيّة، هي شدّة إعجابها بالشّعر العربي، وخاصّة الجاهلي، فهو على صلة وطيدة بالعربيّة التّي تعتبر النّواة الأولى المكوّنة للهويّة، حيث حفر في نفسها عميقا لجماليّته، وأيقظ النّخوة العربيّة في داخلها، إذ تذكر قائلة: "كأنّه يعيد الاعتبار إلى جذوري وانتمائي، أنا التّي كنت أهرب من الماضي، ماضينا، دون معرفة بتاريخه المضيء وحضارته المشعّة. كنت ككثيرين مثلي، نعاني عقدة النّقص والتّخلّف، ونرى في الغرب نموذجا نلهث وراءه"[10]، ولعلّ في هذا الخطاب نلمس نبرة فخر واعتزاز بهذا الانتماء للحضارة العربيّة العريقة، التّي كانت تجهل الكثير عنها، ومواطن القوّة فيها، كغيرها من أبناء جيلها الذّين لا يولون اهتماما كبيرا بها، ونبرة أخرى تحمل لهجة تبريريّة مُطْعمة بالعذل واللّوم، حيث تُبرّر فيها سبب الهروب والتّخلّي عن الماضي، وتلوم نفسها على ذلك في الوقت ذاته، وبالتّالي كان سببا في التّأكيد على هويّتها، واستشعار ذاتها ووجودها، ومقاما لمراجعة النّفس.

2. الكتابة ومسألة الخلود:

إنّ الكتابة تخليد للذّات وإثبات لها، فهي تشكّل صمودا أمام الزّمن، وتُحقّق ديمومة لصاحبها، فهي شكل من أشكال الخلود، فـ"لا شيء يقهر الموت مثل الكتابة. لولا كتاب التّوراة ما عاش النّبيّ موسى أو اليهوديّة. لولا كتاب الإنجيل ما عاش المسيح أو المسيحيّة، ولولا القرآن ما عاش محمّد أو الإسلام"[11]، ولقد لجأ الكثير من الأدباء أثناء كتابة سيرهم إلى الإشارة إلى الوعي بمسألة الكتابة، وقد نوّهوا بها أثناء سردهم لذواتهم، وكتابة وقائع وتفاصيل حياتهم، ولعلّ ذلك هو ما يدلّ على وصول الكاتب إلى درجة عالية من درجات الوعي بذاته، فيمرّ بمراحل كثيرة كانت قد شكّلت شخصيّته وساهمت في بنائها، وبالتّالي نجد أنّ دوافع الكتابة تختلف وتتعدّد بحسب ما يريد صاحبها أن ينقله إلينا أو يبوح به، فمن خلال تدوينه لسيرته نجده يُضمّنها أسباب كتابته لها، والدّوافع التّي قامت وراءها، حتّى تبلورت فكرة الكتابة واختمرت في ذهنه، وإنّها لمجازفة يركب فيها صاحبها الخطر، خاصّة وأنّه سيتعرّض في كتابته لسيرته إلى سير الآخرين، فيكون من الصّعب الحديث عنهم

وعن حياتهم الخاصّة، إذ لا سلطان له عليهم، ولا يملك الحقّ في الكتابة عنهم، كما أنّ الذّاكرة يمكن لها أن تخونه، ويقف النّسيان حاجزا أمام التّذكّر، فيتذرّع به وتتوارى الحقيقة وراءه، لكن تبقى تلك الذّكريات تُصرّ على الظّهور والخروج إلى السّطح، فما على صاحبها إلّا توثيقها وكتابتها، إذ تقول صاحبة "تقنيات السّرد الرّوائي": أنّ "الكتابة هي ما يبقى يُهوّم داخلي ويُقلق روحي. الكتابة هي حياة ترنو إلى المجهول. والمجهول يوهم بالحياة ...الكتابة تغويني"[12]، فهي بالنّسبة لها إغواء، وأفكار تعبّر عن قلق صاحبها واضطرابه، تنطوي تحتها أسئلة مربكة، وتُعبّر عن الصّراع الذّي يعيشه، وأنّ ما يقوله إمّا أن يكون له وإمّا أن يكون عليه، وأنّ ما سيكتبه سيتحمّل مسؤوليّته وتبعاته، فالكتابة تُخيف مثلما قال "بارت". كما تعتبر شكلا من أشكال التّنفيس والتّرويح على النّفس من المكبوتات التّي تختلج في صدر صاحبها، فيحوّلها إلى نصّ يقول فيه ما يودّ قوله، ويُضمّنه ما يريد، ولعلّ في "أرق الرّوح" كان ذلك الصّراع الذّي بدأت صاحبته بالحديث عنه، ظلّ يلاحقها إلى نهاية السّيرة، وتعتبره لصيقا بمسألة الكتابة، إذ تقول: "أين أنا، وماذا تريد منّي هذه الـ أنا؟ ومن هي هذه الـ أنا؟ هل أنا هي؟ حكمت التّي حكيتُ حكايتها، أم هي أنتِ التّي أُخاطِب وتُؤرجحني... هل يُمنى التّي كانت تتكوّن صورتها مجرّد حروف وكلام سيبدّدها هواء الزّمن. ألهذا أكتب عنها اليوم غير ما كتبتْ طوال سنوات؟ من يكتب هذه السّيرة؟"[13]، فسؤال الكتابة ظلّ يُؤرّقها ويشغل بالها، ومن خلاله استطاعت أن تصل إلى ذلك الانشطار والتّشظيّ الذّي يسكنها، فجعلها تعيش التّعدّد مع ذاتها ومع الآخرين، وكانت الكتابة هي المهرب الوحيد الذي جعلها تعيد صياغة ماضيها، وتسرد تفاصيل تلك الأنا.

ارتبطت الكتابة لديها ،كذلك، بمسألة الموت، هذه الفكرة التّي سيطرت عليها منذ البداية وهي تحكي طفولتها الجريحة، شبح الموت الذّي كان يأخذ من تعلّقت بهم، ويقبض على أطفال أبرياء شاركتهم الحبّ والحياة، وأحلام الصّغر البريئة، حيث كانت ترى الأشلاء متناثرة هنا وهناك، والأجساد ملقاة على قارعة الطّريق جرّاء الغزو والاضطراب الذّي حلّ بلبنان لسنوات متوالية، فكان الموت يشعرها بالخوف والارتباك ، كما شكّل لها هاجسا ظلّ عالقا بداخلها، وهي التّي تعرّضت للموت مرّتين، فكادت تخسر حياتها لولا النّجاة بأعجوبة، إذ تروي قائلة: "كنت أعيش طفولتي في

صورة من يموتون حولي، وفي حجب غلّفتني باكرا. الموت...الموت الذّي راود حياتي، الذّي طرق باب طفولتي أكثر من مرّة، الذّي أخذ أمين، وإسماعيل وسهام...أقراني. الموت الذّي أخذ الحياة. الموت...الذّي عنى لي الغياب؟ الموت...هو المنفى"[14]، وهو ما نجده عند الكثير من كتّاب السّيرة الذّاتيّة، خاصّة النّساء، حيث تُعتبر "الملجأ الوحيد للمرأة في الانتقال من الحاضر المرير الذّي يُعلن باقتراب الموت في كلّ لحظة إلى الماضي بكلّ أشكاله السّعيدة والتّعيسة"[15]، فهاهي اليوم تستعيد ذكريات ماضيها، وتعيد كتابة سيرتها وهي توشك على الثّمانين من عمرها، خائفة من سهام الموت أن تقتنصها في أيّ لحظة، وبالتّالي كانت الكتابة وكأنّها وسيلة للاحتماء منها ودفعها، وهذا الاحتماء كان من أجل تخليد الذّات، التّي لا تموت بفعل الكتابة. وعليه "هناك اعتبارات كثيرة تحمل كتاب السّيرة الذّاتية على الجهر بالدّوافع التّي غالبا ما تحملهم على الكتابة، وقد نجد على رأسها...الرّغبة في نوع من الخلود المعنوي، الذّي سيصبح رمزا للوجود الفردي المطلق على مرّ الزّمن، ويمكن أن نفسّر هذه الرّغبة على أنّها الشّعور الشّخصي بالدّيمومة من خلال الكتابة، باعتبارها صنوا للقداسة"[16].

3. من الذّاكرة الفرديّة إلى الذّاكرة الجماعيّة:

تعد الذّاكرة بمثابة الأرشيف الذّي نحفظ فيه كلّ شيء ، نُخبّئ فيها ما قد مررنا به من أحداث وذكريات ، بل إنّها تحرص على تقييد كلّ حدث جوهري كان قد شكّل فاصلا في حياتنا لنستدعيه وقت الحاجة ، فتتكبد مشقّة التّذكر وتهاجم شبح النّسيان ، تحفظ ماضينا و تشكل حاضرنا، و لا شطط إن قلنا إنّها تكتنز هويتنا و تحفظ ثوابتنا، ولا شكّ أنّ مقوّمات كلّ أمّة دُوِّنت اتّكاءً على ذاكرة أبنائها، و عليه فـ"الذاكرة الشخصية أو الجماعيّة ترجع بالتّحديد إلى ماض يُحتفظ به حيًّا بفضل التّبليغ من جيل إلى جيل، وهذا ما يُشكل ينبوعًا لمقاومة تُبديها الذاكرة في وجه معاملتها كعلم لكتابة التّاريخ "[17]، لتغدو مرجعا يُستند عليه في تدوين التاريخ بالنّسبة للأمم والشعوب، وذلك لما تختزنه هذه الأخيرة من أمجاد و بطولات، و من هزائم وانكسارات تكون كفيلة برسم المعالم الأولى للتّاريخ، لتحفظه من الزّوال والاندثار، ولعلّ أبرز الأشياء التّي تجعل المرء يحتفظ بذكرياته التّي عاشها، ويُسجّل مختلف الأحداث والتّجارب التّي مرّ بها، هي تلك الأمكنة التّي درج

فيها وحطّ الرّحال بها، وهو ما فعلته يمنى العيد في سيرتها "أرق الرّوح"، إذ عادت إلى مدينتها "صيدا" في لبنان، هذه القرية الصّغيرة المطلّة على البحر، التّي عاشت فيها أيّام طفولتها وبراءتها، وشقائها وسعادتها، سارت فيها أولى خطواتها، بين حاراتها وأزقّتها، وجابت سهولها ووهادها، تحكي عنها وكلّها شوق وحنين إليها، وتحوّلها بوصفها من مدينة صغيرة، بل قرية معزولة في تلك الأيّام، إلى أخرى جميلة وآسرة، تسرّ النّاظرين، تقول وهي تروي قصّة الحبّ التّي جمعتها بـ"أمين" وقد كانا طفلين: "نمضي..حاملة بين ضلوعي غريزة الحبّ إلى الأمكنة الأولى شأني شأن العصافير، وكافّة الكائنات التّي ترتبط، ولو على غربة، أو كره أحيانا، بأمكنة خروجها إلى الوجود فوق هذا الكون الأرضي، بيوتنا هي التّجاويف التّي تشبه الأرحام حيث نصغي إلى أوّل نبض في الحياة...إنّه معنى يملأ الفضاء الذّي يحتضننا ونكبر فيه. أحسّه يتدفّق من السّطوح المجاورة، في مدينتنا القديمة ومن أبواب منازلها المفتوحة بعضها على بعض، إنّه ذاك القرب والتّلاصق"[18]، إذ تتذكّره وتحنّ إليه، فهو ذكرى جميلة من طفولتها التّي مضت، ولم يبق منها سوى هذه الصّور التّي تزورها بين الفينة والأخرى، فهي تكتب المكان انطلاقا من جماليّته متّكئة على الوصف الدّقيق، إذ كان قلمها أشبه بعدسة تلتقط أدقّ التّفاصيل، فصوّرت الشّوارع الضيّقة، والحارات المنكفئة على بعضها البعض، ودكاكينها المتجاورة التّي كانت تجوبها، حتّى تظنّ نفسك كأنّك تتجوّل فيها، وتتسلّل روائحها وعطورها إلى أنفك، فهي بالنّسبة لها مكان الولادة وحضن الحبّ والحنان، ومرآتها التّي ترى فيها صورتها كأنثى، وقد كان ذلك التّصوير بلغة شاعريّة تغلّفها نبراتُ حزن وشوق واشتياق، إذ نلمس فيها محاولة استرجاع، ليس للمكان فحسب، وإنّما هو استرجاع لتاريخه وأحداثه التّي مرّت به، فـ "صيدا" التّي كانت قد أُغتصبت يوما ما، من قبل الغزاة الفرنسيّين، وتمّ تخريب الكثير من معالمها، وزرع الرّعب بين سكّانها، صغارها وكبارها، قد ساهمت في كتابة تاريخ لبنان، الذّي مرّ بانتكاسات كثيرة، فالمكان باعتباره ملكا للجماعة التّي تتشارك فيه مع بعضها البعض، وتجمعها جملة من القيم والمبادئ، وتربطها عادات وتقاليد تجعلها متميّزة عن غيرها من الجماعات الأخرى، المنتمية إلى فضاءات مختلفة، هو الّذي يجعلهم يتشاركون في الذّكريات الجماعيّة، ومن هنا كانت يمنى في اهتمامها بالمكان والحرص على وصفه، قد أعادت إحياء الذّاكرة الجماعيّة التّي تجمع أبناء هذا

المكان، فالفرد فيه مقدّم كرمز للمجموع في تراتب، يندرج من مجتمع البشريّة العام، إلى المجتمع الوطني، إلى المجتمع المحلّي لجماعة من النّاس تنتمي إلى مكان بعينه[19] ، فسيرة الفرد لا تخصّه وحده بقدر ما تربطه بغيره من خلال الكثير من المحطّات التّي يتشارك فيها مع أبناء بلدته، وبالتّالي تعيد الكاتبة إعادة كتابة تاريخ الجماعة التّي تنتمي إليها، وتوثيق الكثير من المحطّات، فهي لم تقتصر في وصفها على مدينتها فحسب، بل عند انتقالها إلى أمكنة أخرى قامت بتوثيقها، ولعلّ ما كان جليّا هو وصفها لبيروت، المدينة الشّمس، التّي اختلفت اختلافا كليّا عمّا رأته قبلا في صيدا، وذلك عند انتقالها للدّراسة في الجامعة، ومن هنا يتوضّح لنا أنّ القرية أو تلك الأماكن الصّغيرة التّي تظهر لنا في فضاء مغلق تدلّ على الانغلاق، وتشير إلى القيود المفروضة فيها من قِبل العائلة والمجتمع، وإن كانت تُشعرنا بالدّفء والحميميّة، بينما الأماكن الواسعة تُشير إلى التّحرّر من تلك القيود، ولكن يفقد فيها المرء الشّعور بالأمان ، حيث "نجد القرية مرتبطة بجذور عاطفيّة وأمان ماديّ وحميميّة اجتماعيّة، بينما تعني حياة المدنيّة تقطّع الجذور والعزلة الاجتماعيّة وعدم الشّعور بالأمان"[20]، ولهذا كانت قد حكت سيرة صيدا الحبلى بالأوجاع والمآسي، وسيرة لبنان الجريح، التّي ظلّت ذاكرتها تنزف معهما كلّما تداعت الذّكريات.

لقد حاولت يمنى العيد انطلاقا من سيرتها كتابة سيرة الجماعة التّي تنتمي إليها، من خلال تتبّع عاداتها وتقاليدها التّي كانوا يتشاركون فيها، والحكايات التّي كان يتبادلها النّسوة والجيران مع بعضهم البعض، وأوضاع البلد التّي كانت سائدة آنذاك، المتعلّقة بالاضطرابات الدّاخليّة والصّراعات الطّائفيّة بين المسلمين والمسيحيّين، فباعتبارها فردا من أفراد الجماعة، فسيرتها هي انعكاس لسير الكثير من الأشخاص الذّين جمعتهم التّجربة نفسها، والوطن ذاته، تحكي كيف كان الجنود يقتحمون تلك الأمكنة ويُطلقون الرّصاص على المعتصمين بها، وبهذا فهي تجربة جماعيّة تخصّ المجتمع اللّبناني بأسْره، نساؤه ورجاله، صغاره وكباره، ويبرز ذلك في مسألة تشكّل الوعي الوطني، ومواجهته لمختلف أشكال القهر والظّلم الممَارسة عليهم، لتغدو السّيرة شكلا من أشكال التّاريخ في بعض جوانبه من خلال قول الحقيقة التّي قد لا يمكن للمرء أن يجدها في مصادر أخرى، حيث تتوسّل الكاتبة بالمحكيّ الذّي كانت تستمع إليه ، وما كانت تقصّه والدتها عليها، والأخبار الّتي كان يتناقلها

الجيران، تقول: "وكانت أمّي تحكي لنا، وتكرّر بلا ملل، حكاية الأتراك...وتحكي عن نفسها، هي الأخت التّي ركضت إلى بيت أهلها لتحمي أخاها سعد. جاء العسكر التّركي يسأل عنه فقالت ما في نفر...تحكي أمّي حكايتها فأغفو عن سماعها"[21]، فالحكاية كانت سردا لأحداث تاريخيّة وقعت فعلا، واستعادة لماضٍ تاريخيّ شابته بعض التّوتّرات والحساسيّات، فهي مرحلة من المراحل التّي شكّلت تاريخ لبنان، وهي محفوظة في الذّاكرة الجماعيّة، حيث " تُعدّ الأخبار المرويّة (المحكيّة) من طرق استعادة الماضي في السّيرة الذّاتيّة. مثل حكايا الأهل من أمّهات، جدّات، آباء.. مثل حكاياتهم عن تاريخ أحداث سياسيّة معيّنة أو أحداث تخصّ العائلة"[22]، فالحكاية ليست حكاية أمّها لوحدها، أو حكاية يُمنى دون غيرها، وإنّما هي حكاية تاريخ كتبه أفراده جماعة، وتشاركوا في التّجربة نفسها، فسيرتها أظهرت في جانب منها سيرة الجماعة التّي تعيش بينها. كما كانت العيد في كثير من المحطّات تُسند القصص إلى أصحابها مع ذكر أسمائهم، كقولها (أتذكّر حكايات عمّي عبد القادر/ يحكي لنا عمّي../ تقول أختي عائشة)، وفي محطّات أخرى تذكر تاريخ الواقعة ومكانها، لتصبح دليلا ثابتا وشهادة حقيقيّة للإيهام بصدق ما تنقل، وبهذا فهي تجربة فرديّة وجماعيّة في آن واحد، حيث أنّ "هناك أبعاد متراكبة، في الواقع، تجعل المشروع السّيرذاتي شبيها بالسّجل العام، منها ما هو ذاتي صرف، يخصّ الكاتب إذ يطمح إلى تخليد ذكراه لفُرادة قدرها وتميّزه بها، أو لتجارب عاشها وأراد تسجيلها، ومنها ما هو تاريخي ارتبط بتوثيق الأحداث التّي مرّ بها ومرّت به، يستوي في ذلك أن نكون هذه الأحداث فرديّة أو عائليّة أو مجتمعيّة"[23]، ولعلّ الصّلة الوثيقة بالمجتمع هي التّي تجعل الفرد في اتّصال دائم معه، وأنّ كتابته لذاته تتوجّب عليه كتابة سيرة الجماعة. تناولت الكاتبة أيضا المحطّات التّاريخيّة التّي مرّت بها، والأحداث التّي عاشتها ووثّقتها، فحاولت أن تُقدّم قراءة للتّاريخ، وتعيد النّظر فيه من جديد، إذ تقول: "أفتح كتاب التّاريخ الذّي أهداني إيّاه ذات يوم منير خوري، جارنا في صيدا، أودّ أن أكتب عن ذلك الزّمن، أن أدقّق في بعض التّفاصيل والتّواريخ، ممّا له علاقة بتلك المظاهرة"[24]، حيث تعود للنّبش فيه من جديد، وتعقّب الحقيقة واستقائها من مصادرها الأصليّة، حتّى تقف عند تلك الأحداث وتعيد معالجتها، حيث تسرد تفاصيلها، وتقف عند أبرز أسبابها، إذ عادت إلى انتهاء الانتداب الفرنسي هناك، وانتخاب "بشارة

الخوري" ممثّلا لمدينتها، والمظاهرات التّي خاضها أبناء القرية وتلاميذها، وقد كانت هي واحدة من بينهم، ولعلّ هذا الاسترجاع كان قد صاحبه مساءلة للتّاريخ الذّي كتبته جهة بعينها كانت وصيّة على ذلك، "ففعل الكتابة عن الذّات يصبح مرادفا للتّأريخ والتّحقيب والتّوثيق، وقد يتطوّر كلّه إلى أن يصبح مبجّلا بالأحداث والمواقف والتّطوّرات التّي تبدو للكاتب ذات أهميّة مطلقة في التّعريف بنفسه وتجاربه والوسط الذّي ينتمي إليه، فضلا عن الأحداث العامّة التّي قد يكون شارك فيها أو شهد عليها أو ساهم في صنعها"[25]، فصاحبة "أرق الرّوح"، نظرا لكونها من أولئك الذّين حمل مشعل النّضال في لبنان جعلها تُعيد صياغة بعض الأحداث التّي كانت جزءًا من ماضيها، والذّي اقتسمته مع أبناء جيلها ووطنها، وذلك وفق ما تراه جدير بأن يكون حقيقة، فكاتب السّيرة لا يمكنه أن يكون مؤرّخا بأيّ حال من الأحوال، لكون أنّ عمله يقوم على جانب لا بأس به من الخيال، والذّي يسمح له بأن تكون ذاته حاضرة خلال العمليّة السّرديّة، فمهما تقصّينا الحقيقة إلّا أنّه لا يمكننا القبض عليها كاملة، خاصّة وأنّ صاحبها يعتمد على ذاكرته التّي لا يمكنها تذكّر كلّ شيء، فهي تُصاب أحيانا " بأعطاب فتتحوّل إلى آلة خاملة يتعذّر عليها استرجاع أحداث على حالها، وكما كانت تتمتّع به من غضارة وتوقّد. وهذا ما ينعش خصوبة النّسيان، ويُنمّي الخدع السّير ذاتيّة، ويُعزّز الوهم المرجعي، وعليه يصعب التّمييز بين الحقيقي والخيالي"[26]، فنجدها تخاتل وتُخادع، وتنقل ذكريات يعتريها الكثير من التّمويه، ولعلّ النّسيان الذّي يهدّد كيانها قد يكون طبيعيّا، وقد يكون مُتَعمّدا، فنجد صاحبها لا يريد أن يكشف عن الكثير من الحقائق لأسباب كثيرة تجعله متحفّظا عليها، "ليس من السّهل على الأديب أن يتحرّى الصّدق لا ينتج عن رغبة المؤلّف بتزوير الحقائق، وذلك لأنّه يعتمد في سرده للأحداث على الذّاكرة، والذّاكرة معرّضة للنّسيان والخلط"[27] وعليه فعمل الذّاكرة يبقى بين أخذ وردّ، وهو ما لمسناه في "أرق الرّوح" التّي تُكثر فيها صاحبتها من الاستطراد في الحديث، وتكرار الكثير من العبارات والمقاطع، فالذّاكرة في هذه الحالة وهي تستعيد الماضي نشعر وكأنها في موضع ارتداد، تقفز هنا وهناك، وتوهمنا بالشفاهيّة، التّي ينحو صاحبها هذا المنحى أثناء عمليّة السّرد، فنجده يكرّر الكلمات والجمل التّي يقولها، ويعيد سرد بعض التّفاصيل، وهوا ما يوهمنا في هذه السّيرة أنّ بعض المحطّات فيها، أشبه بالحكي الشّفوي الذّي لا يمكننا أن

نقبله كلّه أو نرفضه كلّه . ولهذا فمن الصّعب أن نجزم بأن السّيرة تاريخ، بل إنّ العلاقة القائمة بينهما هي علاقة تنافس "في كون الأول يبحث عن الحقيقة، في حين تحرص الثّانية على الوفاء للماضي"[28]، وعليه فالسّيرة وإن استطاعت أن تحوي جزءا من تاريخ الجماعة، إلّا أنّنا لا يمكننا الوثوق بما فيها وثوقا خالصا دون مساءلة.

4. التّجربة الأنثويّة وأشكال التّعبير عنها:

لقد كتبت المرأة ذاتها مثلها مثل الرّجل، وعبّرت عنها في أشكال سرديّة ذات بناء محكم ، تُنبئ عن مدى رصانة تلك التّجربة، واستطاعت نقلها إلى القارئ حتّى تُفصح عن الملابسات والظّروف التّي كانت تحياها، إذ شاركت الرّجل هي الأخرى في هذا اللّون الأدبي في الحديث عن شخصيّتها وإسهاماتها المختلفة في المجتمع، فـ" السّيرة الذّاتيّة سواء يكتبها الرّجل أو المرأة تكون مماثلة عندما تتعرّض لنفس المشاكل داخل نفس المجتمع، ولكنّها تصبح مختلفة عندما تُعبّر المرأة عن طريق الأدب المكتوب كيف عاشت، المشاكل الخاصّة بها وشعرت بالمصير الذّي خصّها به المجتمع"[29]، فكانت يمنى العيد قد كتبت مسيرة حياتها بداية من طفولتها، وهي الفتاة التّي عاشت في مجتمعٍ ذكوريّ، يخضع لقوانين العائلة والعشيرة، ويُقدّس الأعراف والقيم التّي توجهه. فكانت الطّفلة قد وُلدت داخل برقع خرجت منه إلى العالم، تقول :"ولدت مقنّعة، يلفّ وجهي الغشاء الذّي تكوّنت ونموت فيه داخل رحم أمّي"[30]، ذلك البرقع الذّي كان ينتظر النّسوة أن يأخذه والدها إلى شيخ المدينة حتّى يصنع منه حرزا، أو حجابا ليدفع عنها كلّ مكروه، والذّي كُنّ يعتبرنه بشارة خير، والسّؤال الذّي يُطرح: أهو حجاب تُستتر به، أم هو رمز للحُجب التّي تُفرض على الأنثى وتُقيّدها في ذلك المجتمع الذّكوريّ، أهو حرز لدفع كلّ مكروه قد يُصيبها، أم لدفع عار عن العائلة الذّي قد يلحقها بسبب هذه الفتاة، التّي تأخذ مكانة في هذا المجتمع كغيرها من بني جنسها، لذلك حرصت على أن تكتب سيرتها حتّى تحكي لنا ما صادفته في الحياة، وإن كانت لم تتناول كلّ المحطّات التّي مرّت بها، إلّا أنّها ركّزت على ما رأته خادما لها، وما يستحقّ أن يُنقل فيعرفه الآخرون، ذلك لأنّ كاتب السّيرة الذّاتيّة "غير مطالب بسرد تفاصيل حياته كلّها منذ الولادة وحتّى لحظة الانتهاء من كتابتها، أو الاستهلال

بالحديث عن الجذور العائليّة، ولكن كاتب السّيرة له حق في انتقاء الأحداث الأكثر أهميّة في حياته أو سرد ما يراه هو مثيرا وجليّا في كتابته للنّاس"[31].

تتذكّر يمنى العيد قصّة ذهابها إلى المدرسة، والحديث الذّي دار بينها وبين والدتها، التّي كانت لها رغبة جامحة في إرسال ابنتها إلى هناك، بعد أن كانت ترى الفتاة أن المدرسة شيء غامض وبعيد المنال، وأنّ السّؤال عنها ملجوم، مطوّق بالصّمت، فالأمّ لا تريد لابنتها أن تعيش الحياة التّي عاشتها، القائمة على خدمة الزّوج وطاعته، إذ تفرش، وتكنس، وتطبخ، وتغسل الصّحون، وتربّي الأبناء، ولا شأن لها بأمور الحياة الأخرى، فأرادت لها حياة أفضل من ذلك، وهو الذّي لن يتأتّى إلّا بالمعرفة، فكان الطّريق إلى المدرسة هو أولى الخطوات نحوها، وهي التّي ستقودها إلى التّحرّر من كلّ سلطة تُفرض عليها، وبهذا تعالج الكاتبة مسألة تعليم البنات، إذ لم يكن هناك إقبال كبير على تعليم الفتيات، حتّى وإن تعلّمن فإنّهنّ يصلن إلى مرحلة معيّنة ويتمّ إيقافهنّ، إذ لا يُسمح لهنّ بإتمام دراستهنّ خارج مدينتهنّ، وهي فرصة لا تُتاح إلّا للذّكور، فعندما أرادت أختها عائشة أن تُتمّ دراستها حُرمت من ذلك رغم تفوّقها، وعندما لان والدها لشدّة بكائها، احتجّ عمّها قائلا: كيف لأبيها أن يُرسلها إلى مدارس الكفّار، واقترح خالها تزويجها، فعادت أدراجها إلى البيت، خائبة اليدين صفرا، فالأنثى في ذلك المجتمع المغلق لم تكن تحظى بحريّة كاملة لتمارس حقوقها، ولا لتعبّر عن رأيها أو تبديه، حيث تعيش تحت سلطة أبويّة ليس من صلاحيّاتها أن تحيد عن أوامرها، أو تخرج عنها، لكن الكاتبة وبعض صُويحباتها كُنّ قد تمكّنّ من القفز على أسوار المجتمع، إذ تفوّقن في دراستهن، بل وسافرن إلى بيروت لمواصلة تعليمهنّ وذلك بعد محاولات عديدة، وعند نجاحهنّ تمّ تكريمهنّ من قِبل رئيس الوزراء، الذّي سلّمهنّ الشّهادات يدا بيد، وهناك تمّ إجبارهنّ على ارتداء النّقاب لكنّهنّ رفضن، وتقدّمن للاحتفال سافرات، ومن ثمّ تمّ تغيّر الوضع، حيث أخذت النّسوة في صيدا في الكشف عن وجوههنّ، وأخذ سكّان المدينة في الانتقال للعيش خارجها، وبهذا ترى الكاتبة أنّها كانت من اللّواتي حملن مشعل التّغيير في المجتمع اللّبناني، والعمل على تحرير المرأة، بعد أن كانت مواصلة التّعليم أمرا عسيرا، وسفرها لوحدها يكاد يكون جريمة، وهو تنويه بالدّور الفاعل الذّي تلعبه المرأة في المجتمع، وأنّ نجاحها يصنع فيه المعجزات، ويقوده إلى واقع أفضل.

لقد كانت يمنى العيد تحمل الهمّ الوطني منذ صغرها، وتعتبر نفسها عضوا فاعلا في مجتمعها مثلها مثل الرّجل، باعتبارها فردا من أفراده، إذ نجدها قد شاركت في العديد من المظاهرات، وانضمّت إلى صفوف التّلاميذ الذّين نظّموا إضرابا بقيادة معلّمتهم، وقد كانت مشاعر الخوف تغزوها، فهي تخاف أن يراها أخوها، تلك المرأة التّي علّمتها درسا في الصّمود والتحدّي، حيث حاولت اجتياز الحواجز العسكريّة التّي كانت أمامهم، وصفعت الجنديّ بيدها الصّلبة، إذ تسرد الكاتبة قائلة: "وشعرت بالفخر بمعلّمتنا الجميلة، الطّويلة، البيضاء، الكاشفة عن شعرها الأشقر متحديّة أمر الحجاب، وعندما سمعت أمّي تُحمّلني مسؤوليّة ما أصابني، تملّكني الحزن والغضب"[32]، لقد تمرّدت على كلّ الأُطر الاجتماعيّة، وتمكّنت مِن قيادة مَن معها في مهمّة صعبة، لقد استطاعت أن تفعل ما لم يفعله الكثير من الرّجال، إنّه فخر بالرّوح القياديّة التّي تملكها، وشعورها بحسّ المسؤوليّة، بل كانت قائدة جيل من الفتيات نحو صناعة التّغيير، جيل واعٍ وواعد يسعى إلى الحريّة ويطمح نحو غدٍ أفضل، فهي ليست ثورة ضدّ المحتلّ فحسب، وإنّما هي ثورة نحو التّغيير، ثورة على المجتمع الذّي ظلّ مكبّلا للمرأة، مجهضا أحلامها التّي رسمتها، وطموحاتها التّي بنتها، إنّه تحدّ لكلّ الصّعوبات والعراقيل التّي أُكرهت عليها.

لقد كانت يُمنى هي الأخرى نموذجا لأستاذتها، والتّي نجدها قد ورثت أفكارها وتطلّعاتها، حيث نجدها قد أصبحت مديرة إحدى الثّانويّات، وقد كانت تسعى إلى النّهوض بواقع التّعليم في بلادها، وتبديد الجهل بين صفوف أهله، والقضاء على الطّائفيّة التّي كانت مستفحلة فيه، والتّي بسببها كانت قد تعرّضت للكثير من المضايقات والتّمييز العنصري خلال دراستها في مدرسة "القدّيس يوسف"، ذات التّوجّه المسيحي، والتّي كانت تشعر فيها بأنّها مختلفة، غريبة، ودخيلة، بل وفي أحيان أخرى دونيّة، فكانت ترفض الأيديولوجيّات في مكان عملها، والتّوجّهات السّياسيّة والدينيّة، إذ لم تكن تعترف إلّا بالمعرفة الخالصة، ذات التّوجّه العلميّ البحت، ولا تؤمن إلّا بالنّزعة الإنسانيّة فيها، فهي الإنسانة المثقّفة، المتشبّعة بالأدب، والقيم العليا، تطرح من خلال سيرتها مكانة المثقّف العضوي ودوره الفعّال في النّهوض بالمجتمع، الذّي لم يكن بالنّسبة إليها وقفا على الرّجل فحسب، فمن خلال نضالها السّلمي، استطاعت أن تعلّم طالباتها المنتسبين إلى مدرستها فنّ السّؤال، وكسر

جدار الصّمت، وغرست في نفوسهنّ حوار الذّات وثقافة الاعتزاز بها، إذ تقول: "وأنا، كمديرة، أتبنّى منظورا يقوم على التّكامل بين التّعليم والتّربية، بين المعارف والثّقافة...ولعلّي كنت مسكونة، آنذاك، برغبتي في أن أحقّق لفتيات الثّانوية ما كنت أحلم به وأتمنّاه لنفسي، أو كنت، دون أن أدرك، أودّ أن تكون فتيات الثّانويّة مرآة ليمنى التّي كانت تعتمل داخلي. لعلّي وددت أن أتعدّد فيهنّ، فلا أرى إلّا صورة لتلميذة أوفّر لها ما لم يتوفّر لي"[33]، وهو تعويض لما حُرمت منه، وما كان من العسير نيله.

كذلك من القضايا التّي تطرحها صاحبة "أرق الرّوح"، هي قضيّة الجسد، التّي تكرّرت كثيرا في سير ذاتيّة نسائيّة كتبتها المرأة، حيث تروي تفاصيل الاعتداء عليها في المظاهرات التّي شاركت فيها، والتّي أُهرقت فيها دماؤها، وكُسرت ساقها، ومكوثها في المستشفى لمدّة ستّة أشهر، إذ تقول: "في ذلك المستشفى، مستشفى المحتل، الذّي كان بعيدا، وجدت نفسي على سرير أبيض، قدماي اللّتان كانتا مغطّاتين بأكوام من القطن الأبيض المبلّل بالدّم، رأيتهما مثل الهضبتين من الجفصين المبقّع، عند الكاحل باللّون الأحمر"[34]، فالجسد رغم هُزاله ونحالته، إلّا أنّها وهبته لوطنها ولقضيّة بلادها، ولعلّ الضّرر الذّي لحقه كان بفعل سلطة عسكريّة يقودها رجل، هذا الذّي مارس عليه شكلا من أشكال العنف، ظلّ يُعاني هاجس الاعتداء الذّي يتربّص به، فـ" التّركيز على رمزيّة الجسد، والرّجوع بالذّاكرة إلى موقع الوأد. إنما هو تأكيد ضرورة الاعتراف بهذا الجرح التّاريخي عند نساء العرب. كما أنّه وسيلة لتحويل كابوس الماضي الأليم إلى حاضر جديد ومستقبل واعد"[35] فالجسد الأنثوي وما لحقه من أذى شكّل علامة دالّة على الماضي الأليم، لكنّه كان سببا وتضحية مُقَدَّمة من أجل نيل ما كان مفقودا، بل هو استذكار في حدّ ذاته لتاريخ الاضطهاد الذّي مرّت به المرأة في أزمنة مضت، والعنف الذّي طال هذا الجسد، وبهذا "ترسم أدبياتنا صورة مروّعة للجسد الأنثوي الذّي يُشوّه، يُغتصب، ويُسجن، وتُقطّع أوصاله ثمّ يعاد تركيبه من جديد في عمليّات تجميل جبريّة، ويُلتهم رمزيّا من قبل النّظام الأبوي والضّغوطات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسّياسيّة والاستعماريّة التّي تُسيطر على محيطه"[36]، وعليه فالكتابة عن الجسد هي الثّأر له واسترداد ما فُقد، وإعادة الاعتبار له.

خاتمة:

إنّ هذه السّيرة التّي كتبتها النّاقدة "يمنى العيد"، ذات الإبداع الفذّ والتّصوير العميق للذّات، من السّير القلائل التّي خطّها المبدعون في الأدب العربي، كتبتها بلغة شاعريّة مبهرة، استغلّتها حسب كلّ موضع من مواضع الكتابة، فجاء فيها الوصف، والتّقرير، والنّقد، حيث تمكّنت من البحث في خبايا النّفس وسبر أغوارها ومحاورتها، فطرحت قضايا المرأة وانشغالاتها، إذ لم تكن تشغلها مسألة البوح ودرجات تصعيدها كثيرا، مثلما تجلّت في الكثير من السّير الذّاتيّة النّسائيّة، بل ركّزت على دورها الفاعل في تغيير المجتمع نحو واقع أفضل، والرّسالة التّي تحملها كونها فردا من أفراده، كما كتبت سيرة المكان والجماعة، وتقصّت ما كانت تراه مهمّا بالنّسبة للقارئ لمعرفته والاطّلاع عليه، وما يمكنه أن يقدّم معرفة له، وعليه مثلما تألّقت نقدا تألّقت إبداعا ، ليبقى هذا المنجز السّردي يفتح على الكثير من الدّراسات، ويكتنز أبحاثا عميقة فيه.

الهوامش والإحالات:

[1]/ يمنى العيد، أرق الرّوح (سيرة)، دار الآداب، ط1، بيروت، لبنان، 2013، ص 13- 14.

[2] / المصدر نفسه، ص 14- 15.

[3] / المصدر السّابق، ص 13.

[4] / شكري المبخوت، سيرة الغائب سيرة الآتي (السّيرة الذّاتية في كتاب "الأيام" لطه حسين، دار مسكيلياني للنّشر والتّوزيع، تونس، ط3، 2015، ص 118.

[5] /يمنى العيد ، أرق الرّوح (سيرة)، ص 65.

[6] / عبد العزيز شرف، أدب السّيرة الذّاتيّة، مؤسّسة للنّشر والتّوزيع، ط1، القاهرة، 1998، ص 12.

[7] / يمنى العيد، أرق الرّوح (سيرة)، ص 13.

[8] / المصدر نفسه، ص 59.

[9] / المصدر السّابق، ص 59.

[10] / المصدر السّابق، ص 144.

[11] / أمل التّميمي، السّيرة الذّاتيّة النّسائيّة في الأدب العربي المعاصر، المركز الثّقافي العربي، 1، السّعوديّة، 2005، ص 125.

[12] / يمنى العيد، أرق الرّوح (سيرة)، ص 203- 204.

[13] / المصدر السّابق، ص227- 228.

[14] / المصدرالسّابق، ص 202.

[15] / أمل التّميمي، الّسيرة الذّاتيّة النّسائيّة في الأدب العربي المعاصر، ص 125.

[16] / عبد القادر الشّاوي، الكتابة والوجود (السّيرة الذّاتيّة في المغرب)، أفريقيا الشّرق، د.ط، المغرب، 2000، ص 133.

[17]/ بول ريكور، الذّاكرة، التّاريخ، النّسيان، ترجمة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، ط1، بيروت، لبنان، 2005، ص 584.

[18] / يمنى العيد، أرق الرّوح، ص55.

[19] / تيتز رووكي، في طفولتي (دراسة في السّيرة الذّاتيّة العربيّة)، ترجمة: طلعت الشّايب، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، ط1، القاهرة، 2002، ص268.

[20] / المرجع نفسه، ص 259.

[21] / يمنى العيد، أرق الرّوح (سيرة)، ص 38-39.

[22] / أمل التّميمي، السّيرة الذّاتيّة النّسائيّة في الأدب العربي، ص 218.

[23] / عبد القادر الشّاوي، الكتابة والوجود، ص 134.

[24] / يمنى العيد، أرق الرّوح (سيرة)، ص 79.

[25] / عبد القادر الشّاوي، الكتابة والوجود، ص133.

[26] / محمّد الدّاهي، صورة الأنا والآخر في السّرد، دار رؤية للنّشر والتّوزيع، ط 1، القاهرة، 2013، ص 254.

[27] / تهاني عبد الفتّاح شاكر، السّيرة الذّاتيّة في الأدب العربي، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، ط1، 2002، ص 23.

[28] / المرجع نفسه، ص 252.

[29] / غرّاء مهنا، السّيرة الذّاتيّة في صيغة المؤنّث، مجلّة البلاغة المقارنة، القاهرة، عدد 22، 2020، ص 44.

[30] / يمنى العيد، أرق الرّوح (سيرة)، ص 17.

[31] / أمل التّميمي، السّيرة الذّاتيّة النّسائيّة في الأدب العربي المعاصر، ص 131.

[32] / يمنى العيد، أرق الرّوح (سيرة) ص، 83 – 84.

[33] / المصدر نفسه، ص 188.

[34] / المصدر نفسه، ص 87.

[35] / هالة كمال، من السّيرة الذّاتية إلى كتابة الحياة: مسارات وتقاطعات عبر العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، مجلّة البلاغة المقارنة، القاهرة، عدد 22، 2020، ص 87.

[36] / المرجع نفسه، ص 87.

قائمة المصادر والمراجع:

1- يمنى العيد، أرق الرّوح (سيرة)، دار الآداب، ط1، بيروت، لبنان، 2013.

2- شكري المبخوت، سيرة الغائب سيرة الآتي (السّيرة الذّاتية في كتاب "الأيام" لطه حسين، دار مسكيلياني للنّشر والتّوزيع، تونس، ط3، 2015.
3- عبد العزيز شرف، أدب السّيرة الذّاتيّة، مؤسّسة للنّشر والتّوزيع، ط1، القاهرة، 1998.
4- عبد القادر الشّاوي، الكتابة والوجود (السّيرة الذّاتيّة في المغرب)، أفريقيا الشّرق، د.ط، المغرب، 2000.
5- بول ريكور، الذّاكرة، التّاريخ، النّسيان، ترجمة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، ط1، بيروت، لبنان، 2005.
6- تيتز رووكي، في طفولتي (دراسة في السّيرة الذّاتيّة العربيّة)، ترجمة: طلعت الشّايب، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، ط1، القاهرة.
7- أمل التّميمي، السّيرة الذّاتيّة النّسائيّة في الأدب العربي، المركز الثّقافي العربي، ط1، السّعوديّة، 2005.
8- محمّد الدّاهي، صورة الأنا والآخر في السّرد، دار رؤية للنّشر والتّوزيع، ط 1، القاهرة، 2013.
9- تهاني عبد الفتّاح شاكر، السّيرة الذّاتيّة في الأدب العربي، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، ط1، 2002.
10-غرّاء مهنا، السّيرة الذّاتيّة في صيغة المؤنّث، مجلّة البلاغة المقارنة، القاهرة، عدد 22، 2020.
11-هالة كمال، من السّيرة الذّاتية إلى كتابة الحياة: مسارات وتقاطعات عبر العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، مجلّة البلاغة المقارنة، القاهرة، عدد 22، 2020.